رحلة مع العقل

إنه شاب رائع .. يمكن أن تتمناه أية أم عاقلة لا تطلب من الدنيا إلاّ ولداً ناجحا مطيعا .. يعطي كل شيء حقه .. الدراسة ، الطاعة ، الشخصية الفذّة ، النشاط ... رائع بمعنى الكلمة ... حيث لا يمكن لأب مريض يعرف أنه راحل عن الدنيا أن يتمنى ولدا أفضل منه سلوكا و نشاطا و تفوقا ...

كـان متفوقا في دراسته ، لطيفا في معاملته مع كل من يحيطه ... يجامل هذا و يثني على ذاك .. له طرقه في طرح أفكاره الجديدة و له أسلوب رائع للإقناع ... لا يصرف من وقته إلا هنيهات يرتاح فيها و يستلقى ليستعيد نشاطه أو يأخذ أخته للنزهة والترويح عن النفس ... أنهى دراسته و التحق بكلية الهندسة التي طالما كان يتوق للالتحاق بها ... و كـانت حلما من أحلام والده الذي توفي و ترك له رعاية أخته و أمه مع قدر من المال غير قليل لكنه يكاد يفي الحاجة ..

أرادت له والدته التفرغ للدراسة ليتخرج بأسرع ما يمكن و من ثم يجاهد ليساعدها في مصاريف أخته ... فأطاع رغبتها ووجد تلميذا يعطيه دروسا خصوصية تساعده أجورها على تحمل مصاريفه الشخصية ... لم يـكن ما يعكر سماء حياته ... كـان قانعا بما قسمه الرب ... متفائلا دائما .. لكنه كلما مر في ذلك الشارع المليء بالمقاهي الراقية ... و رأى جموع الناس التي ترتادها خفق قلبه و دسّ يده في جيبه ليتحسس ما فيها من نقود و أصلح من ثيابه و تساءل : هل سيمكنه يوما ارتياد هذه المقاهي .. و لو شرب القهوة أو تناول قطعة حلوى .. لم يـكن يعرف كم يكلف ذلك بالضبط .. لكنه دائما يشعر أن تلك النقود التي في جيبه تسير إلى أماكن إنفاقها دون توقف فكيف يستغني عن أحدها و كلها ضرورية .. إنه مقتنع بما يفعل .. لـكن ذلك لم يكن ليمنع عنه ذلك الشعور بالإحباط كلما مر في ذلك الشارع أو حتى قريبا منه .. كـان يعتقد أن ارتياد هذه الأماكن لها متعة خاصة .. لا يمكنه إحساسها .. و هي مقتصرة على طبقة معينة هو ليس منها .. لكنه سيكون .. لا بد أن يكون .

لم يـكن يعرف أنّ كل مرة يعاود المرور فيها تزيد مشاعره إحباطا .. حتى كاد يكره الاقتراب .. لـكن أخته تحب أن تتمشى في ذلك الشارع المليء بالخضرة و المياه المنسابة شلالات حلوة حيث يقصده الجميع و كأنه مهرجان تجتمع فيه الشبيبة .. هذا يسترق النظر إلى تلك ، و هذه تنظر من بعيد إلى ذاك نظرة خجولة علّه ينتبه إليها ، و تلك تصطحب صديقة لمقابلة صديق تتمشى معه ...

و هو لا يحب أن تذهب أخته إلى هناك بمفردها ... ثم ما يشجعه أنها تصطحب صديقتها الحميمة معها ... و هو يحب صحبة هذه الصديقة اللطيفة و كم كان يتمنى لو أن باستطاعته دعوتهما إلى أحد هذه المقاهي المنتشرة ... و كلما وجد مجموعة من الشبان يجلسون بصبة فتيات صديقات أو أخوات اكفهر وجهه و أحس بذلك الإحباط الشديد ... لكنه أبداً لم يظهره لأحد ... ليتذكر بعد قليل بأنه قانع بما لديه و يكتفي بأن يشتري لهما كوزين من الذرة أو شرابا باردا أو حتى قطعة بوظة ..

ذات يوم كان جيبه يحمل مرتب شهر كامل من العمل و الجهاد مع ذلك التلميذ البليد الذي استطاع بجهوده أن يحسن من أحواله و يرفع من معدله فما كان من والده إلا أن منح الأستاذ مكافأة مالية ليعبر عن شكره ... جيبه يحمل المرتب و المكافأة .. و مر في ذلك الشارع ... جيئة و ذهابا .. مرة .. مرتين و هو يحدث نفسه و يشاورها في الدخول إلى ذلك المقهى بالذات ى... يقرر و يتردد ... ماذا لو كلفه ذلك مبلغا محترما ... أليس من الأفضل أن يشتري ذلك القميص الباهظ الثمن الذي أحبه منذ شهرين و كان ثمنه أكبر من المبلغ الذي يمتلكه هل يشتري القميص أم يشرب فنجان قهوة و يدفع ثمن استمتاعه بدخوله عالم الأثرياء ...

أصلح من ثيابه و شد أزر نفسه و اندفع يحث الخطى إلى المقهى ... شعر أن كل الناس ينظرون إليه .. ارتبك .. هل سيحسن التصّرف ؟ هل سيشعرون أنه لا ينتمي إليهم ؟ ، لا إنه في هذه اللحظة مستعد أن يدفع كل ما في جيبه ثمنا لذلك ... اختار طاولة منفردة أمام النافذة و سعى إليها .. ربما ليراه الجميع ... جلس على الكرسي و مد قدميه ليجبر نفسه على الاسترخاء ... و سوى قميصه .... فجأة خطرت له فكرة جعلته يلملم قدميه و يغزوه الارتباك من جديد .. هل يناسب لباسه مكانا كهذا ؟ . هل كان عليه ارتداء البدلة الوحيدة التي يقتنيها ؟ ... نظر حوله ... هذا بدون ربطة عنق ... و ذاك أيضا ... لا بأس إذن .

اقترب النادل ... فاستوى في جلسته محتارا هل يعامله بلطف أم بفظاظة ... ترى كيف يتصرف هؤلاء الناس ... ماذا عليه أن يفعل ليبدو واحدا منهم ... نفخ صدره و بكثير من الرفعة همَّ أن يقول ... و إذا بالنادل يسبقه بالقول : عفوا سيدي الطاولة محجوزة ... تفضل إلى الطاولة المجاورة من فضلك . لا يعرف كيف يتحرك عن الكرسي و انتقل إلى الطاولة المجاورة ... ألف خاطر دار في رأسه .. لماذا يا ترى فعل النادل ذلك ... هل هي محجوزة فعلا أم تلك حجة اتخذها لإبعاده عن هذه الطاولة .. أهي الطاولة الأهم ! من يكون ذلك الذي حجزها ! أهو أفضل منه ! قد يكون أثرى منه لكنه بالتأكيد ليس أفضل منه في شيء آخر ... ليست الثروة هي المهمة في حياة الإنسان ... الشخصية و العلم و الإيمان و الحب ما يميز الإنسان ... فليكن أثرى منه لكنه ليس أفضل ...

- هل أفسر ذلك للنادل .. لا لزوم لذلك لن يفهمني .. ما هو إلا نادل هنا لماذا أقول هذا .. حتى لو كان كذلك قد يفهم ... هل كونه نادلا يعني أنه لا يفهم .. ربما أكمل تعليمه لكن ظروفه اضطرته للعمل هنا .. سيدي هل تنتظر أحدا أم تريد أن أقدم لك أية خدمة ! كلمات النادل أعادته إلى الطاولة فاستوى و بكثير من الرفعة طلب فنجان قهوة ..

لماذا يتعالى على هذا المسكين ... لماذا يحس أنه أعلى منه شأنا ... هو دائما يقول أن الناس سواسية و سواسية يجب أن يعاملوا ... في كل شيء ... لكنه يحس بالتعالي و الرفعة أمام هذا النادل المسكين ... شعور لم يستطيع إبعاده ... مهلا .. ماذا لو لم أستطع دفع ثمن فنجان القهوة ... كلا لا يمكن أن يكون باهظا إلى هذه الدرجة .. لم يستطع أن يسأل النادل كم يكلفه ذلك ... فهذا سيدل على أنه يقصد المكان للمرة الأولى ... جلس يمعن النظر هنا وهناك ... يفتش عن عيون تحسده كما كان يفعل عندما يكون خارجا ... هل يرونه في الخارج ... تلك الطاولة المحجوزة كانت بالتأكيد ستبدو من الخارج ... أما هذه ... فهل يراه أحد !!

كلٌّ منشغل بمن يرافقه ... لا يعيره أحد انتباها ... ليته أحضر أخته ربما كان قد تسلى معها و لم يحس بطول اللحظات ... لماذا يطول إحضار فنجان القهوة ... لكنه لم يأت لشرب القهوة فقط ... فليستمتع بجلسته و يفرد قدميه ويسترخي ...

رأى النادل عن بعد يحمل الصينية المذهبة و عليها فنجان قهوة و كأس ماء . هو فنجانه بالتأكيد لأنه فنجان وحيد متوجه إلى طاولته ... ارتبك .. هل يدفع له مباشرة كلا هو يرى في الأفلام أن الناس يدفعون عند المغادرة إذن عند المغادرة ... كيف يقولون أن الأفلام غير مفيدة ها هي الإفادة واضحة ..

أخذ الرشفة الأولى .. و بعدها ثانية .. لم يجدها كما توقع لذيذة لها طعم خاص هل لأنه سيدفع ثمنها غاليا !

كان يرتشفها و يقول لنفسه –هل هذا كل ما في الأمر ... بماذا يختلف الجلوس هنا عن النمشي في الخارج ليتني اشتريت القميص و لم انزلق للدخول إلى هنا ... لا بأس لاستمتع بالرشفة الأخيرة طالما سأدفع ثمنها لا محالة .. ثمنها !! كيف سأسأله عن ثمنها ...

و تذكر الفيلم ثانية لا بد أن ورقة الحساب هنا في مكان ما .. و هم أن يفتش كل ما على الطاولة لكنه تنبه ... و بكل رفعة أعاد يده إلى طرف الطاولة وراح يبحث بعينيه .. لا بد أن تكون تحت الفوطة في ذلك الصحن ... فتحها بكل حذر .. زادت ضربات قلبه .. لا لا تستحق كل هذا الاضطراب ... ليس الثمن باهظا لكنه سيلتهم المكافأة .. لا بأس فهو أقل مما توقع .. و دسّ يده في جيبه ليخرج المبلغ بكل رفعة ... فارغ جيبي فارغ .. كيف !! الآن وضعت نقودي فيه ... فارغ ... إنه غير مثقوب فقد أخاطته أمي بالأمس و تأكدت من ذلك بنفسي .. هل سرقني أحد هل كنت مضطربا إلى هذا الحد فلم أحس بالسارق يمد يده إلى جيبي !!! مستحيل ... هذا لم يحدث معي مطلقا ... كنت أسخر ممن يحدثونني عن حوادث مماثلة ... لكن جيبي فارغ أين ذهبت نقودي يا للفضيحة .. ترى ماذا سيفعل النادل بي ! لابد أنه سيرسل في طلب صاحب المحل ! أو ربما استدعى شرطيا ... أمي ... أمي ماذا سيكون موقفها .. يا للفضيحة ... ليتني وقعت و كسرت قدمي قبل دخولي ... ليتني ... مهلا .. مهلا ... لقد تذكرت وضعتها في جيب قميصي مع بطاقتي الشخصية .... أوه الحمد الله ... وضع الحساب في الصحن تحت الفوطة و خرج مسرعا .. لم يترك حتى شيئا « للبقشيش » فهو لن يعود ثانية .. خرج و هو يضحك من نفسه .. يضحك عاليا من الداخل حتى كادت الضحكات تخرج عاليا و تتحول البسمات المرتسمة على شفاهه إلى قهقهة عالية ...

لا بأس تجربة مثيرة .. لكنها تجعلك تضحك من نفسك عندما تعتقد أشياء مشابهة .. لن يفكر بالدخول مرة أخرى ... فالمبلغ الذي وضعه في الداخل كان يكفيه ليشتري لأخته و صديقتها المرطبات و الذرة أربع مرات و

في هذا متعة أكبر .. أو ربما دعاهما ذات يوم .. ليحتفل بتخرجه لكنه من المؤكد أنه لن يشعر بذلك الإحباط مجددا .. فقد كسر ذلك الشعور الزجاجي الذي كاد أن يحطمه ... من المؤكد أنه سيقصد ذلك الشارع كلما تسنى له ذلك و سيستمتع بصحبة من يرافقه و لن ينظر مرة أخرى إلى تلك النوافذ ليرى من فيها و ماذا يفعلون بل سيوافق أخته على الجلوس أمام نافورة المياه و الاستمتاع .. لا شك أنها ستفاجأ بموافقته على الجلوس لكنه ربما سيحكي لها يوما تجربته .